**سلسلة دروس ومحاضرات مساق: النظرية الخليلية الحديثة.**

تقديم الأستاذ/ خثير تكركارت

 جامعة بجاية

**فاتحة ومهاد**: يأتي مقياس النظرية الخليلية الحديثة في سياق الجهود المتعاظمة لإيجاد بديل علمي للنظريات اللسانية الغربية، وأيضاً إحياء التراث العلمي الذي تزخر به الحضارة العربية الإسلامية. كما تأتي أيضاً في ظل اكتساب الطالب لأهم المعارف العلمية المرتبطة باللسانيات العامة، منذ عهد ف. دي سوسير إلى الاجتهادات المعاصرة ضمن ما يُعرف باللسانيات التداولية؛ أي رصيد أكثر من قرن من الزمن. كما أنها تأتي في ظل التنافس العلمي الشريف بين الغرب الذي يُنسب إليه كل النظريات، والجهود العربية سواء أكانت فردية أم مؤسساتية.

 وتتويجاً لتلك الجهود مشرقاً ومغرباً، ظهرت إلى الوجود نظرية علمية تُعدّ أجد أهمّ الاجتهادات الرصينة في أواخر القرن الماضي، وأوائل هذا القرن، بإحاطة علمية مُميّزة، وبقراءة واعية للتراث اللغوي العربي منذ عهوده الأولى، وملهمة للعديد من اللسانيين العرب- ليس في الجزائر فحسب – وإنما في العديد من البلدان العربية. وهذا ما ينسجم مع طموحاتها العلمية أن تكون نظرية بأتم معنى كلمة نظرية، وقابلة للتطبيق، ليس في العربية فقط، وإنما أيضاً حتى على اللغات الأخرى؛ كالإنجليزية مثلاً.

- **مفهوم النظرية**: هي« تعبير عن معرفتنا لـِما نُسميه بالواقع، تعبيراً يقول بالتماسك والمنهجية ». وللنظرية في الغالب العام وظيفة مزدوجة تفسّر الواقع وتُنبئ بتطوره، غير أنّ النظرية لا تستهدف الإحاطة بالواقع كله، بكل تعقيداته، بل هي تعتمد الانتقاء والاختيار الواعي للأحداث ذات الأهمية الكبرى، والدور البارز في نظرها. وعملية الانتقاء هذه التي تُشكّل الوظيفة الثالثة للنظرية، تتمثل في التصنيف وفي« ترتيب الظواهر والمعطيات ».

 لا بد من التمييز بين مفهوم النظرية في العلوم الدقيقة، ومفهوم النظرية في العلوم الاجتماعية وفي اللسانيات بصفة خاصة. وقد ميّز فيليب بريار (Philippe Briarld) بين ثلاثة اتجاهات أساسية للنظرية هي:

**\* النظرية الجوهرية**(Essentialiste): التي تتجه نحو إبراز جوهر مختلف الكيانات الاجتماعية، عن طريق تأمّل فلسفي يقوم على العقلانية التجريبية والتفسير المعتمد على الحدس. وهدف هذه النظريات هو إيجاد أشكال التنظيم الاجتماعي، المُثُل، وتحديد القيم التي توجّه كل الأعمال.

**\* النظرية التجريبية:** تنطلق من بناء مجموعة مقولات، تكون عرضة للتحقيق والتزوير، من خلال مقارنتها بالواقع، وذلك من أجل التوصل إل اقتراح تفسيرات لمختلف أنماط السلوك.

**\* النظرية الديالكتية- التاريخية:** ترفض الجانب الوصفي المحض للواقع، فهي ليست تأملية بل انتقادية؛ فالمادية الجدلية ترى أنّ النظرية نتاج للممارسة و« شكل خاص من أشكال الممارسة »، وإنها وعي انتقادي للواقع الاجتماعي، ولا يمكن فصلها عن الممارسة الاجتماعية.

 وبعد هذه الوقفة التمهيدية – الأولية عند مفهوم "النظرية" نطرح السؤال التالي: ما المقصود "بالنظرية اللغوية؟". وقبل تحديد مجالها وبيان طبيعتها، تجدر الإشارة إلى بيان مفردات مقياس "النظرية الخليلية الحديثة" أولاً.

- مفردات مقرر السداسي في "النظرية الخليلية الحديثة".

1 – مدخل عام (البحث اللغوي واصالة الفكر اللغوي العربي).

2 – التعريف بالنظرية الخليلية الحديثة.

3 – المبادئ الأساسية في النظرية الخليلية.

 \* اللغة وضع واستعمال.

 \* الباب والمثال

 \* مفهوم القياس

 \* مفهوم الأصل والفرع

 \* الانفصال والابتداء

 \* مفهوم اللفظة والعامل

 \* مفهوم الموضع والعلامة العدمية

4 – مستويات التحليل اللساني في النظرية الخليلية الحديثة.

 \* مستوى اللفظة

 \* مستوى الدوال

 \* مستوى أبنية الكلام

 \* مستويات التصدير أو ما فوق العامل

5 – كيفية تدريس القواعد النحوية في ضوء النظرية الخليلية

6 – تطبيقات

* المعجم العربي والاستعمال الحقيقي للغة العربية
* النظرية الخليلية الحديثة(مفاهيمها الأساسية وكيفية استغلالها)
* منطق التحليل العربي
* مشروع الذخيرة اللغوية
* منطق النحو العربي والعلاج الحاسوبي للغات
* نصوص أخرى في أعمال "عبد الرحمان صالح".

\* **مصادر المقياس ومراجعه**.

 يأتي في مقدمة هذه المصادر كل ما كتبه مؤسس النظري الخليلية، وهو الأستاذ الحاج عبد الرحمان صالح، من دراسات أو مقالات، أو دروس أو محاضرات طلية مسيرته العلمية التي تقارب (50)خمسين سنة، والتي نطر منها ما يلي:

- الحاج عبد الرحمان الحا صالح، النحو العربي والمنطق الأرسطي، في "مجلة كلية الآداب"، جامعة الجزائر، ع1، السنة1، 1964.

- الحاج عبد الرحمان صالح، البحث اللغوي وتداخل المفاهيم المختلفة المنشأ(1)، أو نظرية اشتراط اللغة والنسبية اللغوية كمبدأ تُصحح عليه مناهج البحث، غير منشور. د ت،

- الحاج عبد الرحمان صالح، النحو العربي واللسانيات البنوية، اختلافهما النظري والمنهجي. بحث غير منشور.

- الحاج عبد الرحمان صالح، النظرية الخليلية الحديثة في مجلة اللغة والأدب، مجلة أكاديمية علمي، يصدرها معهد اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر، ع10، رجب 1417 هـ، ديسمبر 1996.

- الحاج عبد الرحمان صالح، النظرية الخليلية الحديثة، مفاهيمها الأساسية، كراسات المركز، مركز البحث العلمي والتقني لتطوير اللغة العربية، ع4، سنة 2007.

- الحاج عبد الرحمان صالح، السماع اللغوي العلمي عند العرب، ومفهوم الفصاحة، موفم للنشر، د ط، الجزائر 2007.

- الحاج عبد الرحمان صالح، بحوث ودراسات في علوم اللسان، موفم للنشر، د ط، الجزائر 2005.

- خولة طالب الإبراهيمي، مبادئ في اللسانيات، دار القصبة للنشر، ط2، الجزائر 2006.

- الحاج عبد الرحمان صالح، "القياس على الأكثر" عند نحاة العربية وما يترتب عليه، في مجلة المجمع الجزائري للغة العربية، ع9، السنة الخامسة، جمادى الثانية 1430هـ/ جوان 2003.

- محمد صاري، المفاهيم الأساسية للنظرية الخليلية الحديثة، في اللسانيات مجلة في علوم اللسان وتكنولوجياته، مركز البحوث العلمية والتقنية لترقية اللغة العربية، ع10، الجزائر 2005.

- التواتي بن التواتي، محاضرات في أصول النحو، دار الوعي للطباعة والنشر، ط2، الجزائر 2012.

- اتحاد الكُتّاب العرب، جمعية البحوث والدراسات، أبحاث الندوة السنوية لجمعية البحوث والدراسات، دمشق 16/11/2020/ منشورات اتحاد الكُتّاب العرب، دمشق 2001.

1 – **مدخل عام(البحث اللغوي واصالة الفكر اللغوي العربي)**:

**تـمهيد**: قبل الحديث في هذا المدخل العام عن البحث اللغوي، مدى أصالته في الفكر اللغوي العربي، لا بد من الحديث عن مفهوم النظرية اللغوية الذي صدّرنا به حديثنا عن مفهوم النظرية بين العلوم الدقيقة والعلوم الإنسانية؛ فالحديث عنها في العلوم اللغوية، وبالضبط في ميدان اللسانيات، وذلك إجابة عن السؤال السابق. ما المقصود بالنظرية اللغوية؟

 وإجابة عن هذا السؤال نؤكد على أنّ اللغة بصفتها نظام من العلاقات، تتحدد وفق مبادئ واسس نسقية، ولفهم هذه العلاقات وكيفية عملها، والعناصر المتحكمة فيها، سعى اللسانيون منذ قرون من الزمن إلى البحث فيها، إلاّ أن تلك الجهود، ولاسيما المقارنة منها، بقيت غير مؤسسة بحكم التغيرات التي تطرأ على النوع من الدراسات.

 إلاّ أن يجيء ف. دي سوسير الذي استطاع أن يُعرّف بدقة نقائص تلك الدراسات، كيف لا وهو الذي تتبع خصائص الأنظمة التصويتية للغة السنسكريتية، وبعدها درس "**المضاف المطلق**" في ذات اللغة، والذي اشتغل على العديد من اللغات لاحقاً، ولاسيما "المقارنة" والتقصي كخطوات علمية، بغرض "**الوصف**". كل هذا جعله – فيما بعد – المُنظّر الحقيقي لهذا العلم؛ أي "اللسانيات"، أو الدراسة العلمية والموضوعية للغة. تلك النظرة التي اعتُبرت لاحقاً نظرية متكاملة في "اللغة"، لاستجابتها لمجموعة من الحدود والضوابط، الاستقراء الواسع، والمشاهدات الواقعية للظاهرة اللسانية.

 وعليه، فإنّ مفهوم النظرية اللغوية، منذ عهد سوسير، ولا سيما من خلال كتابه "C.L.G" اختصاراً لـ "محاضرات في اللسانيات العامة" بدأ في التأسيس بفضل تلك الجهود "التأصيلية"، و"المنهجية" التي أملتها دراسات سوسير، ونظرته العميقة للغة، فاعتبرت بحق نظرية في ميدان اللغة. وقد وُصِفت كذلك بأنها "النظرية البنوية في اللغة"، لاعتبارات علمية نذكر منها ما يلي:

\* أنها درست اللغة وفق منهج التفابل، أو نظام الثنائيات systeme d'opposition؛ ففي ضوء هذا النظام الذي يسهّل اللغة بصفتها كذلك، أبانَ سوسير عن جملة من الأجهزة المفهومية التي أعطت لنظريته الشرعية العلمية والموضوعية بأن توصف بـ"النظرية السوسيرية للغة"، وهي بذات المعنى أنها طريقة شاملة لوصف لغة من اللغات، أو إجراء تحليلات على نظامها، واستخراج خواصه الكلّية والخاصة على حد تعبير "تشومسكي".

 وعليه، فإنّ "النظرية اللغوية" ما هي في حقيقة الأمر سوى "تحليل" للعناصر المُكوّنة للغة بمختلف مستوياتها، بقصد الكشف عن القوانين المحددة والمتحكمة في أنساقها وبنيتها.

 وقد قاد هذا التفكير لاحقاً إلى "تصنيف" هذه الأفكار والمفاهيم في "مذاهب"، أو "مدارس"، أو "نزعات". وما هي في الحقيقة سوى نظريات تطمح إلى الوصف العام للغة من اللغات، ومحاولة إيجاد تطبيقات لها في أرض الواقع، كدراسة بعض الظواهر اللغوية، مثل الصوت اللغوي بمختلف خصائصه ومُكوّناته، الذي يسهم مع غيره من المستويات في تجديد وتعريف نظام اللغة بصفة عامة.

 وكذلك الشأن بالنسبة للمستوى النحوي، وأيضاً التمييز بين اللغة والكلام(المنطوق/ المكتوب). كل ذلك أدى إلى تطبيقات ميدانية فيما يُعرف باسم "النظريات اللسانية التطبيقية"، أو ما يُصطلح عليه أيضا باسم "المظهر التربوي للسان" في بعض الدراسات التطبيقية في حقل "اللسانيات التربوية"، أو ما يُعرف لاحقاً بـ"التعليميات "، بالجمع تمييزاً لها عن باقي "التعلّمات"، واختلاف ذلك بسبب المادة المراد تعلّمها، واعتبارا لبعض المبادئ الأخرى التي تحكم أو تعضد الممارسات التطبيقية لفعل "التعلم".

1 – **تعريف الحاج عبد الرحمان صالح للتراث اللغوي العلمي**:

 لقد جاء في مقدمة باكورة أعماله المنشورة "السماع اللغوي عند العرب ومفهوم الفصاحة" أنّ الذي رام إليه بقوله: "التراث العلمي" هو ما تركه لنا العلماء العرب القدامى من أعمال جليلة« انطلق كما هو معروف من دراسة القرآن للحفاظ على لغته، وذلك بطريقة علمية وهو الاستقراء للنص القرآني واختراع نظام من الإعجام والنقط لتصحيح القراءة »، وأنّ هذين العمليْن إنما ظهراَ معاً، وذلك لأنه« أحسّ هؤلاء الباحثون بضرورة الرجوع إلى كلام العرب لنزول القرآن بلغتهم، ولمواصلة ما أبدعوه من هذه الطريقة الموضوعية، شرعوا في السماع المباشر من أفواه العرب، وقد حصل هذا السماع بطريقة علمية »([[1]](#footnote-1)).

 ثم يليه الكشف عن الهدف من دراسته، وهو الجانب الأهم من هذا التراث ببيان« الأصول العلمية التي امتازت بها علوم اللسان عند العرب عن غيرها، مقطوعة الصلة عمّا ظهر في زماننا من النظريات العلمية في العلوم اللسانية »([[2]](#footnote-2)).

 فهذا العمل يهدف في مجمله إلى القيام بـ« مقارنة بين ما قاله العلماء العرب القدامى، وما قاموا به من بحوث، وما توصلوا إليه من أفكار ومناهج التحليل، وما يقوله المحدثون في مختلف نظرياتهم ومذاهبهم؛ كالبنوية المعاصرة الأوربية منها والأمريكية، وكالنحو التوليدي التحويلي، وكنظرية الخطاب وغيرها..»([[3]](#footnote-3)).

 وللوقوف على مدى أصالة البحث العلمي العربي في تراثنا اللغوي، عمد الأستاذ الحاج عبد الرحمان صالح إلى ضبط مجموعة من المبادئ والأسس التي وَسَمتْ البحث العلمي في تراثنا اللغوي بالأصالة (في مقابل المعاصرة). وذلك في قوله:« قد اعتمدنا في تحرير هذه الدراسة على مجموعة من الأصول سنعرضها مع بعض الأمثلة »([[4]](#footnote-4)). وذلك في رده على بعض المتأخرين كميلهم إلى الاكتفاء بما يقول المتأخر عن المتقدم، والتهاون بما قاله المعني نفسه، والاقتصار على ما رُويَ عنه، وعن مذاهبه وأفكاره ولو بعد قرون. كل هذا مع وجود النص الأصلي، وقد يتعارض هذا النص بما قاله الآخرون تعارضاً شديداً، ثم الاعتماد على الحكايات التي يحكيها مؤلّفو كُتُب الأدب وكتب الطبقات حول عالم قديم، فقد« ينسب هؤلاء إلى العلماء القدامى أقوالاً لم يقلها أحد منهم، ومذاهب لم ينقلوها عنهم مباشرة أو يقولوا بها. ويكفي أن يرجع الباحث إلى ما تبعثر من أقوال هؤلاء العلماء في مختلف المصادر الموثوقة حتى يتبيّن ذلك بوضوح، وقد يصلون بذلك إلى بناء النظريات حول هذا التراث والحكم عليه بأحكام يشوبها الكثير من التعسف »([[5]](#footnote-5)).

 وهذا الرأي نفسه أكده أحد تلامذة الحاج عبد الرحمان صالح وهو محمد صاري في مقالته "المفاهيم الأساسية للنظرية الخليلية الحديثة"، اثناء حديثه عنها بقوله:« اتجهت النظرية الخليلية الحديثة إلى إعادة قراءة التراث اللغوي العربي الأصيل، والبحث عن خباياه، لا حُبّاً للقديم في ذاته، ولا محافظة من أجل المحافظة ولكن بغية التنبيه إلى الطفرة والتلقائية المفاجئة التي أحدثها سيبويه وشيوخه وتلاميذه في تاريخ علوم اللسان البشري، بعد أن تحامل عليهم كثير من الدارسين الذين تأثروا بالمناهج الغربية الحديثة.. لقد سعت النظرية الخليلية الحديثة منذ ظهورها إلى بعث الجديد عبر إحياء المكتسب فتجاوزت مرحلة الاقتباس السلبي عند نقلها عن الغرب أو عند نشرها عن العرب »([[6]](#footnote-6)).

 وبهذا يصل الباحث إلى نتيجة مفادها أنّ هذه النظرية إنما« تنطلق في قراءتها للتراثية وتأصيل أفكاره من منطلقيْن أساسييْن هما »([[7]](#footnote-7)):

1 – لا يفسر التراث إلاّ التراث، فكتاب سيبويه لا يفسره إلا كتاب سيبويه. ومن الخطأ أن نسقط على التراث مفاهيم وتصورات دخيلة نتجاهل خصوصياته النوعية.

2 – أنّ التراث العربي في العلوم الإنسانية عامة، واللغوية خاصة ليس طبقة واحدة من حيث الصالة والإبداع فهناك تراث وتراث!

 وبناء على هذين المبدأين فإنّ التراث الذي استندت إليه النظرية الخليلية إنما هو« التراث العلمي اللغوي الأصيل الذي تركه أولئك العلماء المبدعون الذين عاشوا في زمان الفصاحة اللغوية الأولى، وشافهوا فصحاء العرب وقاموا بالتحريات الواسعة النطاق للحصول على أكبر مُدوّنة لغوية شاهدها تاريخ العلوم الإنسانية. وأما الذين جاءوا بعدهم فكانوا عالة عليهم، إذ ضيّقوا حدود النحو الواسعة، واستبدلوا مفاهيم القدماء الإجرائية النشطة بمفاهيم أخرى جامدة تأمّلية، مع بقاء نفس الألفاظ التي تدل عليها في الغالب »([[8]](#footnote-8)).

 ولأجل التأكيد على تلك الأصول في التراث العلمي اللغوي، فقد عمد الأستاذ الحاج عبد الرحمان صالح إلى ضبطها كما يلي:

أ – فيما يخص الرواية ومدى ثقة الباحث فيها:

1 – ضرورة الرجوع إلى ما قاله القائل نفسه؛ أي إلى نص قوله أو أقواله مما وثق، والامتناع البات من الاكتفاء بما رُوِيَ عنه.

2 – ضرورة الاعتدال في التصديق لما يُروى من الأحداث ومن الأقوال بأن يكون "من أكثر من وجه".

3 – ضرورة الاصطفاء للمصادر وتخيّر ما أجمع العلماء قديما وحديثاً على صحته، ومن الأقوال بأن يكون "من أكثر من وجه".

4 – الرفض لكل مرجع كمرجع للرواية يتضح أنّ أكثره كذب وافتراء متعمد.

ب – فيما يخص الفهم الذي قصده بالفعل أصحاب النصوص:

5 – ضرورة تقديم النص الأصلي لقول قائل على شرحه في محاولة فهمه.

6 – التمسك بمبدأ التصفح الكامل للنص الواحد، أو لعدة نصوص.

7 – الاعتماد بعد هذا التصفح الكامل للنص على طريقة تحليلية استنباطية إلى استخراج المعنى المقصود من النص، وليس المعاني الوضعية لألفاظه.

8 – الاعتداد الجدّي المستمر بعامل الزمن في تحوّل رؤية العلماء وتصوراتهم ومفاهيمهم، وما يحصل بالتالي لمصطلحاتهم حتى في النحو واللغة.

 وبهذا نجد صدى هذه الضوابط والمعايير إن صحّ القول في سياق مماثل عند حديث الحاج عبد الرحمان صالح عن موقفه من القدامى من النحاة والمتأخرين في قوله:« الحائل الذي يمنعنا من فهم المبدعين منهم هو أن نجعلهم طبقة واحدة في قيمة ما قالوه »([[9]](#footnote-9)).

 ومما يزيد النحو العربي أصالة وتمييزاً، بل ونضجاً، ما كتبه الحاج عبد الرحمان صالح في أول مقالة له في عهد الجزائر المستقلة عن "النحو العربي والمنطق الأرسطي" في سياق ردّه العلمي والمنهجي على افتراءات المستشرق (أدالبير مركس A. Merx ) في زعمه أنّ النحو العربي فيه تأثير من النحو اليوناني في بدء نشأته. « فقد زعم هذا الزعم دون أن يأتي ببرهان شاف بل اقتصر على الإشارة الوجيزة »([[10]](#footnote-10)).

 يجيب الحاج عبد الرحمان صالح في المقال ذاته بالقول:« طرأ على الثقافة العربية في القرن الثاني الهجري طارئ خطير كان مؤذناً باتجاه جديد لمختلف الدراسات الإسلامية المنبثقة من القرآن: ذلكم الاحدث الذي لا تزال عواقبه واضحة الأثر، شديدة الوطأة على جُلّ ما ابتدعه علماؤنا وأدباؤنا منذ ذلك العصر، حادث اتصال نزعتين في العلم والبيان، بل حادث اصطدام عالمين في ميدان الثقافة والأدب، العالم العربي والعالم اليوناني. وقد اثبت المؤرخون أنّ ذلك الاتصال قد وقع في زمان باكر وأشاروا إلى أول من نقل إلى العربية مآثر الهيلينية، بل استطاعوا أن يعرفوهم بعد التنقيب والتحري الشديد. فقد بحث بول كراوس عن حقيقة ما ادّعاه صاعد الأندلسي في كتاب(طبقات الأمم) من أنّ أول من ترجم كتاباً لأرسطو هو عبد الله بن المقفع، فتبيّن له بعد البحث أنّ ابنه مجمداً هو الذي قام بهذه المحاولة الوحيدة من نوعها. وحققوا أيضاً وجود اتصال سابق بين السريان واليونان، ولم يكن هذا خفيا على من اطّلع على الآداب السريانية إلا أنّ الطريف هو أن يستنتج من ذلك اطّلاع العرب على معارف اليونان قبل عهد الترجمة، وذلك بواسطة السريان الذين اندمجوا في مجتمعهم الإسلامي المحدث، وكان الكثير من أولئك السريان قد انتقلوا من زمان منذ خروجهم من الرها، إلى بلاد الفرس حيث لجأ أكثرهم بمدينة جنديسابور »([[11]](#footnote-11)).

 بالإضافة إلى نقضه الافتراضات التي تصنّعها مركس فجعلها مُسلّمات علمية لم يستأذن الخصم في ذلك([[12]](#footnote-12)):

1 – ضرورة مرور زمان طويل تتكون فيه المقاييس النحوية.

2 – ضرورة اعتماد النحو على المنطق وعلى المفاهيم الفلسفية.

3 – ضرورة اعتماد النحاة العرب على مفاهيم غريبة عنهم.

 فقد فنّد الأستاذ الحاج عبد الرحمان صالح تلك الافتراضات الخاطئة بقوله:« هذه هي القضايا التي يرد مركس أن نسلّمها له كمصادرات إذ لم يطلب منا ذلك، بل كحقائق يثبتها الحس والنظر، وهذا يستنتج من إطلاقه القول، فإنه لا يكاد يقيّد كلامه بشيء.. فأعظم نقص يؤخذ عليه هو جعله الضروري بمنزلة الممكن الوقوع، وهذا من التساهل بمكان! فهذه القضايا الثلاث من حيث الضرورة باطلة..»([[13]](#footnote-13)).

2 - **التعريف بالنظرية الخليلية الحديثة**:

 انطلاقاً من أن« النظرية اللغوية موضوع واحد وتعدد في التسميات والمسالك»، فصحيح أنّ ميدان اللغة ومجال الدراسة وحقل التقصي العلمي في الدراسة العلمية للسانيات هو "اللغة"، ولكن اختلاف المسالك وتعدد الإجراءات قاد إلى نوع من التعدد في "النظريات". ومعلوم كذلك أن استقصاء النظام اللغوي يختلف من لغوي إلى آخر، باختلاف الزمان والمكان، والتفكير السائد في كل زمان. ذلك أن جُلّ الدراسات التي تتناول "اللغة" تشير إلى أنّ البدايات الحقيقية لمفهوم النظرية ما كان ليكون بهذا التحديد العلمي – المتعارف عليه الآن – لولا تلك الجهود والاشتغال على اللغة من قبل اللساني ف. دي سوسير بخبرته الواسعة، وتجربته العميقة في ميدان اللغات الهند أوربية، وتأمّله للظاهرة اللغوي في عصره، لذا سُمّي اتجاهه العلمي باسم "الاتجاه البنوي في الدراسة اللغوية"، والذي أثرى الدراسات اللسانية لاحقاً، وجعلها في تنوّع مستمر. مما أدى من جهة أخرى إلى تعدد النظريات، إلاّ أن الموضوع واحد.

 وهكذا ظهرت المدارس المختلفة كحلقة براغ وكوبنهاجن غريهما. فهذه المدراس في حقيقة الأمر ما هي إلاّ انعكاس للنظريات التي برهن أصحابها على صحتها وجدواها في دراسة اللغة، وتحليل اللسان البشري.

 ولقد أغنت الإشارة سابقاً عن القول بأنّ كل مدرسة إلاّ وخلفها "نظرية" تؤصّل الجهود، وتبني الأسس، وتقيم المبادئ؛ فالنظرية بهذا المعنى لا تكتفي بتحليل نص من النصوص، بل تطمح إلى تحليل نصوص اية لغة من اللغات الإنسانية. كما أنّ المبادئ المستنبطة أو المستخرجة من نص معيّن، لا تتعدى كونها تعميقاً لمعطيات معيّنة يمكن تطبيقها على دراسة اللغة، وتتسم حينئذ النظرية اللغوية بسمة "الكُلّية" (universalité)، فيمكن تطبيقها على تحليل أية لغة من اللغات الإنسانية، وذلك لأنها قائمة على مفاهيم عامة.

2 – 1 – **المعرفة على شكل نظريات**:

2 – 1 – 1 – **تعريفات متنوعة**:

- « النظريات أنساق عالمية ملائمة للتفسير ».

- « النظريات فرضيات تمّ تأكيدها والتحقق منها ».

- « النظرية نسق مُسلّم به يصف حوادث الطبيعة ».

- « النظريات تعميمات، انطلاقاً من وقائع معروفة ».

- « النظريات هي استنتاجات مؤسسة على التجارب المختلفة ».

- « النظرية هي نسق من القضايا المعلنة التي ينبغي أن تستجيب لمعايير الصلاحية (الاتساق الداخلي للنسق) ولمعايير الحقيقة ».

2 – 1 – 2 – **تعريفات حسب الاتجاهات**:

 النظريات، من حيث مدلولاتها في التفكير العلمي، ومن حيث وظيفتها وأدوات بنائها مختلفة باختلاف الاتجاه؛ كالاتجاهات اللسانية النظرية التي تُنعَت بالبنوية والوظيفية والتوليدية والتحويلية.. إلخ.

 تلكم هي الملابسات الحافة بمفهوم النظرية اللغوية في حقل الدراسات اللسانية وما يميّزها عما سواها، واختلافها بحسب الاتجاهات لا يعني إلغاء لمفهوم "النظرية" في الاتجاه الذي يسبق الاتجاهات اللاحقة. فهذه الحقيقة اشبه بوهم العصور وتقسيمها.

3 - **النظرية الخليلية - تحديدها وشرعيتها العلمية**:

 قد تمتد حدودها الزمانية إلى ما قبل الخمسينات من القرن الماضي(العشرين)، مثلما صرّح بذلك مؤسسها الأول أستاذ الجيل الحاج عبد الرحمان صالح في ندوة الأستاذ ذات يوم من سنة 1996 بقوله:« إنّ النظرية الخليلية الحديثة نتجت عن جهود متواصلة، وقد بدأتُ في التفكير فيها كما يقول الخليل وأنا طالب في الجامعة الأزهرية، وبخاصة في كلية اللغة العربية، وقارنتُ ما اطّلعتُ عليه في كتاب سيبويه آنذاك من أقوال الخليل وما قرأتُ وكنتُ أقرؤه على شيوخنا في هذه الجامعة العتيقة، فلاحظتُ الفروق الكثيرة التي توجد بين ما ذهب إليه الخليل وشيوخه وتلاميذه وخاصة سيبويه، وبين ما يقوله المتأخرون من النحاة، بل لاحظتُ فرقاً كبيراً لا في النزعة العقلية ولا في مناهج التحليل، وفي الاتجاه العلمي فقط، بل في كل شيء ذكروه، وأخص بالذكر من المتأخرين هذا الرجل الذي صار ما أنتجه من الكتب ومن الأعمال كأنه قرآن النحو، وهو ابن مالك، وهو من المتأخرين وألفيته مشهورة والشروح الكثيرة التي ذاعت ذيوعاً كبيراً في عصرنا الحاضر، وربما كان هذا الذيوع وهذه العناية بشروح الألفية هي التي أدّت إلى تقليص الفكر العربي اللغوي في عصرنا الحاضر والاكتفاء بما يقوله المتأخرون، وقد غطى ذلك وصار حاجباً على أقوال المتقدمين »([[14]](#footnote-14)).

 ويُعرّفها أحد طلبته بالقول:« تضم جماعة من الباحثين، ويُعدّ الدكتور عبد الرحمان الحاج صالح (الجزائر) من أبرز زعمائها الذين أسسوا لها، ودعوا إليها. لقد عكفت هذه النظرية منذ حوالي أربعين سنة تقريباً تدعو معشر اللسانيين والباحثين في العالم العربي إلى قراءة التراث بمنظار علمي بعيد عن التعسف في الاستنطاق، والاعتباط في التأويل. وبفضل جهود علمائها وباحثيها عرّفتْ الدارسين بخصائص علوم اللسان العربي، ومضامينه النوعية انطلاقاً من مقولات اللسانيات الحديثة، فأثبتتْ الحلقة المفقودة التي تجاهلها الغربيون عندما أرّخوا للفكر اللساني البشري، والتي تتمثل في مستخلصات ثمانية قرون أو تزيد من مخاض التفكير اللغوي عند العرب، لاسيما القرون الخمسة الأولى من الهجرة، التي أفرزت نظرية شمولية في الظاهرة اللغوية »([[15]](#footnote-15)).

 وقد تردد صداها ومفعولها في العديد من الأقطار العربية؛ كالسودان، وسريا، والمغرب، على يد طلبة الأستاذ الحاج عبد الرحمان صالح، من أمثال حسين الشيخ بالسودان، ومازن الوعر في سوريا، وابن جيلي المغربي والأخضر غزال، وغيرهم كثير.

 فهي من حيث الموضوع والمنهج، إنما هي ذات نزعة علمية تجنح إلى« الاتجاه المنهجي الذي نجده عند الخليل وسيبويه، وهو الذي نجده عند الشافعي في أصول الفقه، فلا أُفْرِد الخليل بهذه العبقرية التي هي عبقرية الاختراع، وعبقرية الاكتشاف، والأصالة، والأصالة كما أفهمها أعني بها أن يكون الشيء أو الإنسان مبدعاً مهما كان عصره؛ أي أن ألا يكون نسخة لغيره، بالنسبة للأفكار التي ينتجها. فالأصيل هو ما ليس نسخة لغيره مهما كان الزمان، وقد تكون أصالة في زمن قديم، وقد تكون اصالة في زماننا هذا، وقد يكون الرجل فريداً من نوعه في ميدان خاص، أو استعماله لبعض الوسائل العقلية، وهذا ينطبق على الخليل لم يُرَ مثله قطّ في استعماله للوسائل العقلية الرياضية في ميدان اللغة. فالخيلي أصيل بهذا المعنى، لم يأخذ من غيره إلاّ ما قاله العلماء في النحو والصرف، مما أجمع صحته وزاد على ذلك أشياء كثيرة جدا جدا »([[16]](#footnote-16)).

 وتبعاً لصداها من خلال طبيعة الأبحاث التي أنتجتها، وامتدادها العالمي من قبل باحثين اختصوا بما جاء به الخليل وسيبويه ومن هم في مرتبتهم، وأيضاً نظراً لتطبيقاته التربوية في اللغة العربية، واستجابة اللغة الإنجليزية لها، ليس أول على هذا من التطابق الشبه التام بين مفاهيمها الأساسية، وتلك التي جاء بها النحو التوليدي التحويلي لنوام تشومسكي، وكمثال على ذلك مفهوم "الاستقامة النحوية" عند سيبويه، و"السلامة النحوية" عند نوام تشومسكي، وغيرهم كثير من المفاهيم التي تتقاطع مع التمثيل العلمي للنصوص في ضوء هذه النظرية، الأمر الذي أكسبها الشرعية العلمية المناسبة. وفي هذه نجد العديد من البحوث والدراسات التي طبقت مفاهيمها، وأدواتها الإجرائية على اللغة الإنجليزية، ويكفي للقارئ أن يتصفح العديد منها في مجلة اللسانيان ولاسيما القسم الإنجليزي منها وفي أعداد كثيرة.

3 – **المبادئ الأساسية في النظرية الخليلية الحديثة**:

 لعله من نافلة القول بأنّ لكل نظرية مبادئ وأسساً تعتمدها في التحليل؛ فالنظرية الخليلية- كغيرها من نظريات التحليل العلمي للسان البشري – لها عدة مفاهيم ومبادئ تستند عليها في مراجعها العلمية وتحليلها للغة. ويأتي هذا المفهوم في سياق تقويم« النظرية اللغوية العربية التي كانت أساساً لأغلب ما يقوله سيبويه وشيوخه، لاسيما الخليل، وكيفية مواصلة هذه الجهود الأصيلة في الوقت الراهن، ويبدأ بوصف المبادئ المنهجية التي بُنِيت عليها هذه النظرية وذلك بالمقارنة بين المبادئ التي تأسست عليها اللسانيان الحديثة وخاصة البنوية والنحو التوليدي التحويلي، وبين هذه النظرية »([[17]](#footnote-17)). وهي بذلك تكشف عن الاختلافات الجوهرية بين كل نزعة.

3 - 1 - **مفهوم الاستقامة وما إليها**: والذي يستند فيه إلى قول سيبويه في أول كتابه:« فمنه [أي الكلام] مستقيم حسن، ومحال ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح، وما هو محال كذب »[الكتاب:1/2]. ويقول أيضاً: « وأما المحال فهو أن تنقض أول كلامك بآخره فتقول: أتيتُك غداً.. وأما المستقيم القبيح فأن تضع اللفظ في غير موضعه نحو قولك: قد زيداً رأيتُ..»[المصدر نفسه].

 وهنا يأتي تمييز سيبويه بين السلامة الراجعة إلى اللفظ المستقيم الحسن أو القبيح، والسلامة الخاصة بالمعنى: المستقيم/ المحال. ثم ميّز بين السلامة التي يقتضيها القياس(أي النظام العام الذي يميّز اللغة)، والسلامة التي يفرضها الاستعمال الحقيقي للناطقين(وهذا معنى الاستحسان، وهو استحسان الناطقين أنفسهم): مستقيم/ حسن. فعلى هذا يكون التمييز بهذه الكيفية:

- مستقيم حسن = سليم في القياس والاستعمال.

- مستقيم قبيح = خارج عن القياس وقليل في الاستعمال وهو غير لحن.

- محال = قد يكون سليماً في القياس والاستعمال ولكنه غير سليم من حيث المعنى([[18]](#footnote-18)).

 وفي اللسانيات الغربية ولاسيما الأمريكية منها نجد هذا المفهوم أيضاً، خاصة عند اللساني الأمريكي نوام تشومسكي حيث سمّاه "السلامة النحوية".

3 - 2 - **الانفراد وحدّ اللفظة**: والهدف الأساسي منه حسب الحاج عبد الرحمان صالح هو« استكشاف الحدود الحقيقية التي تحصل في الكلام، وبهذا ينطلق الباحث من اللفظ أولاً ولا يحتاج إلى أن يفترض أي افتراض كما يفعله التوليديون وغيرهم عندما ينطلقون من الجملة قبل تحديدها، ولا بد من الملاحظة أنّ هذا المنطلق هو في الوقت نفسه وحدة لفظية (unité semiologique) لا يحددها إلاّ ما يرجع فقط إلى اللفظ وهو: الانفصال والابتداء، ووحدة إفادية(unité communicationnelle) لأنها يمكن أن تكون جملة مفيدة(فقد اكتُشِفت في الكلام الحقيقي)، وعلى هذا فهي تحتل مكاناً يتقاطع فيه اللفظ مع المعنى أو البنية بالإفادة »([[19]](#footnote-19)).

 ويوضح الأستاذ عبد الرحمان الحاج صالح طريقة التفريغ من هذه النواة في ضوء هذا المستوى المركزي المنطلق منه، فقد لاحظ النحاة مجملهم النواة على غيرها مما هو أوسع منها أنّ بعض هذه النوى تقبل الزيادة يميناً ويساراً، دون أن تفقد وحدتها، أو دون أن تخرج عن كونها "لفظة"، وهي القطعة التي لا يمكن أن تنفرد فيها أجزاؤها، وسمّوا هذه القابلية (للزيادة) "بالتمكّن".

 ولاحظوا أيضاً أنّ لهذا التمكن درجات، فهناك اسم الجنس المتصرف، وهو المتمكن الأمكن، ثم الممنوع من الصرف فهو المتمكن غير الأمكن، ثم المبني فهو غير المتمكن ولا أمكن([[20]](#footnote-20)).



 وفي ضوء هذا الحد لاحظ الحاج عبد الرحمان صالح المثال المحدد للاسم(أو المولد)، أنّ كل الوحدات المجموعة بعضها على بعض هي نظائر للنواة من حيث إنها وحدات تنفرد أولاً ومتفرعة عليها بالزيادة ثانياً. فأما التساوي فهو ذلك التكافؤ الذي يحصل بإجراء الشيء على الشيء، وأما التفريع فهو نفس التحويل الذي تكلمنا عنه قبل »([[21]](#footnote-21)).

 وهذا هو الفرق بين التحليل البنوي في اللسانيات الغربية والتحويل في النظرية الخليلية الحديثة الذي يراعي الترتيب التركيبي في الحركة التفريعية التي تنقلنا من الأصل إلى الفرع أو العكس« فكل هذا يكوّن مجموعة ذات بنية تسمّى بالاصطلاح الرياضي بالزمرة(structure de groupe)، وهذا أمر خطير جداً، إذ يمكن أن يصاغ الصياغة الرياضية التي تستلزمها في المستقبل الحاسبات الإلكترونية في علاج النصوص »([[22]](#footnote-22)).

3 - 3 - **الـموضع والعلامة العدمية ومفهوم اللفظة**: الموضع جمعه مواضع، هي تلك التي تحتلها الكلم، وهي خانات تحدد بالتحويلات التفريعية؛ أي الانتقال من الأصل إلى مختلف الفروع بالزيادة التدريجية، وهذه الزيادة هي نفس التحويل(في هذا المستوى). وإذا أردنا أن نعبّر عن هذا باصطلاح الرياضيات فيمكن أن نقول بأنّ ما يظهر بالتفريع في داخل المثال المولّد للفظة هي عبارات متكافئة حتى لو كانت بعضها أطول بكثير من البعض الآخر، وذلك لا يخرجها عن كونها لفظة »([[23]](#footnote-23)).

 ويكون هذا المثال المولِّد للفظة بمثابة "التناسب"، أو "التناظر"(المقابلة بالنظير Bijection=mise en correspondance bi univoque) بين هذه الوحدات (أو حمل أو إجراء كل منها على الآخر). ويذكر الباحث نفسه أنّ هذا الإجراء بالتحويل الذي هو هنا بالزيادة« ولهذه العملية عكسها وهو "ردّ الشيء إلى أصله" على حد تعبير النحاة. وبهذه العمليات يتحدد موضع كل عنصر في داخل المثال. و« أنّ المواضع التي حول النواة قد تكون فارغة، لأنّ الموضع شيء وما يحتوي عليه هو شيء آخر(وهذه مفاهيم رياضية محضة، وهي أهم صفة يتصف بها التحويل الخليلي)»([[24]](#footnote-24)). وهذا الذي يطلق عليه الأستاذ الحاج عبد الرحمان صالح؛ أي هذا الخلوّ من العنصر مع بقاء أو ثبات الموضع هو ترك للعلامة وخلوّ منها، هو العلامة العدمية (Expression zero)»([[25]](#footnote-25)).

3 – 4 – مفهوم العامل: دائماً ينطلق النحاة من العمليات الحملية أو الإجرائية، يحملون مثلاً أقل الكلام مما هو أكثر من لفظة باتخاذ أبسطه وتحويله بالزيادة، مع إبقاء النواة، كما فعلوا باللفظة للبحث عن العناصر المتكافئة(من بعض الوجوه)، فلاحظوا أنّ الزوائد على اليمين تُغيّر اللفظ والمعنى، بل تؤثر وتتحكم في بقية التركيب كالتأثير في أواخر الكلم(الإعراب)، فتحصلوا بذلك على مثال تحويلي يتكوّن أيضاً من أعمدة وسطور (مثل المصفوفة اللفظية)، وذلك مثل:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| ∅إنْكانحسبتُأعلمتُ عُمَراً | زيدٌزيداًزيدٌزيداًزيداً | قائمٌقائمٌقائماًقائماًقائماً |
| **1** | **2** | **3** |

ففي العمود الأول: يدخل عنصر قد يكون كلمة أو لفظة بل تركيباً وله تأثير على بقية التركيب، ولذلك نسمي "عاملاً". ثم لاحظوا أن العنصر الموجود في العمود الثاني لا يمكن بحال أن يُقدّم على عامله، وهي الفكرة نفسها عند النحاة. فالمقصود منها أي ظاهرة العامل/ نظرية العامل« أنّ أية ظاهرة من ظواهر الإعراب في الكلمة(رفعاً أو نصباً، أو جرّاً، أو جزماً) لا بد لها من وجود مؤثر يعمل فيها كي تكتسب تلك الظاهرة. فالفعل مثلاً يعمل الرفع في الفاعل، والنصب في المفعول، و(كان وأخواتها) تعمل الرفع في أسمائها، والنصب في أخبارها، وعلى العكس منها (إنّ وأخواتها)، وحروف الجر تعمل في الأسماء التي تليها فتخفضها، وحروف الجزم تعمل في الأفعال فتسكن أواخرها، أو تحذف منها حروف العلة أو نون التثنية والجمع، والمبتدأ يعمل في الخبر...إلخ»([[26]](#footnote-26)).

 ويذهب محمد صاري إلى اعتبار العامل في النظرية الخليلية "فكرة جوهرية"، ويعنى القدماء بالعامل « العنصر اللغوي الذي لفظاً ومعنى على غيره كجمع الأفعال العربية وما يقوم مقامها، فهو معقول من منقول.. فكل تغيير يحدث في المبنى والمعنى إنما يجيء تبعاً لعامل في التركيب، فلا نجد معمولاً إلاّ وتصوّر له العلماء الأوائل عنصراً لفظياً أو معنوياً هاماً هو العامل الذي يكوّن مع معموله زوجاً مرتباً (couple ordonné) وهكذا يشرعون في تحويلها بالزيادة مع إبقاء النواة(كما فعلوا باللفظة) للبحث عن العناصر المتكافئة، أي البنية التي تجمع وتشترك فيها الأنواع الكثيرة بل اللامتناهية من الجمل »([[27]](#footnote-27)).

 كما أشار أيضاً الأستاذ الحاج عبد الرحمان صالح إلى مستوى تركيبي آخر أعلى من مستوى العامل، ألا وهو مستوى "التصدير" وما فوق العامل فإنّ هناك« أدوات تدخل على(ع،م،خ)، ويعني هذا أنّ هناك موضعاً آخر يتجاوز هذه المواضع. وقد لاحظ أنّ لهذه المواضع الصدارة المطلقة، فكأنّ هذه الأدوات (المسماة بحروف الابتداء) عوامل توجد في مستوى أعلى، إذ إنها تتحكم في كل ما يوجد تحتها.. ومن ذلك أدوات الاستفهام في مقابل الصفر كعلامات للإثبات وأدوات التوكيد، ثم في موضع آخر له الصدارة تدخل فيه أدوات الشرط.. فكل هذا الذي رأيناه هو "تحليل على اللفظ". وأما مجال المعنى فيعتقد الخليليون أنّ المعاني تنقسم هي أيضاً إلى أصول وفروع، فأما الأصول فهي التي تتحدد بدلالة اللفظ ليس إلاّ، وهي من المعطيات الواضعة données sémiologiques الخاصة بلغة من اللغات في زمان معيّن من تطورها، أما الفروع فهي المعاني التي تتحدد بدلالة غير لفظية، دلالة الحال، ودلالة المعنى وغيرها »([[28]](#footnote-28)).

1. - الحاج عبد الرحمان صالح، السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة، موفم للنشر، الجزائر 2007، (من المقدمة). [↑](#footnote-ref-1)
2. - المصدر نفسه، ص 7. [↑](#footnote-ref-2)
3. - نفسه، ص 7 - 8 [↑](#footnote-ref-3)
4. - نفسه، ص 9 [↑](#footnote-ref-4)
5. - نفسه، ص 9 [↑](#footnote-ref-5)
6. - محمد صاري، المفاهيم الأساسية للنظرية الخليلية الحديثة، مجلة اللسانيات، ع 10، 2005، ص 9 – 10. [↑](#footnote-ref-6)
7. - المرجع نفسه، ص 10. [↑](#footnote-ref-7)
8. - الحاج عبد الرحمان صالح، المرجع السابق، ص 10 [↑](#footnote-ref-8)
9. - الحاج عبد الرحمان صالح، النظرية الخليلية الحديثة، في مجلة اللغة والأدب، معهد اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر، ع10، الجزائر 1996، ص 85، [↑](#footnote-ref-9)
10. - الحاج عبد الرحمان صالح، النحو العربي والمنطق الأرسطي، مرجع سابق، ص 68 [↑](#footnote-ref-10)
11. - الحاج عبد الرحمان صالح، النحو العربي والمنطق الأرسطي، ص 67 [↑](#footnote-ref-11)
12. - نفسه، ص 72 - 73 [↑](#footnote-ref-12)
13. - نفسه، ص 72 - 73 [↑](#footnote-ref-13)
14. - الحاج عبد الرحمان صالح، النظرية الخليلية الحديثة، مرجع سابق، ص 85. [↑](#footnote-ref-14)
15. - محمد صاري، المفاهيم الأساسية للنظرية الخليلية الحديثة، مجلة اللسانيات، مركز البحوث العلمي والتقنية لترقية اللغة العربية، ع 10، 2005، ص 9 (من الهامش). [↑](#footnote-ref-15)
16. - الحاج عبد الرحمان صالح، النظرية الخليلية الحديثة، مجلة اللغة والأدب، ص 86. [↑](#footnote-ref-16)
17. - الحاج عبد الرحمان صالح، النظرية الخليلية الحديثة، كراسات المركز، مركز البحث العلمي والتقني لتطوير اللغة العربية، ع4، الجزائر 2007، ص 15 [↑](#footnote-ref-17)
18. - المصدر نفسه، ص 32. [↑](#footnote-ref-18)
19. - الحاج عبد الرحمان صالح، النظرية الخليلية الحديثة، ع4، ص 32. [↑](#footnote-ref-19)
20. - المصدر نفسه ص 33. [↑](#footnote-ref-20)
21. \* علامة الابتداء والوقف، أو علامة الانفصال والابتداء

1 - الحاج عبد الرحمان صالح، النظرية الخليلية الحديثة، ع4، ص 34. [↑](#footnote-ref-21)
22. - المصدر نفسه، ص 34. [↑](#footnote-ref-22)
23. - المصدر نفسه، ص 35. [↑](#footnote-ref-23)
24. - المصدر نفسه، ص 35. [↑](#footnote-ref-24)
25. - ينظر: محمد صاري، المرجع السابق، ص 15 [↑](#footnote-ref-25)
26. - التواتي بن التواتي، محاضرات في أصول النحو، دار الوعي للطباعة والنشر، ط2، الجزائر 2012، ص 270 [↑](#footnote-ref-26)
27. - محمد صاري، المرجع السابق، ص 17 [↑](#footnote-ref-27)
28. - الحاج عبد الرحمان صالح، النظرية الخليلية الحديثة، كراسات المركز، مركز البحث العلمي والتقني لتطوير اللغة العربية، ص 39 - 40 [↑](#footnote-ref-28)